القيم الأخلاقية في سورتي مريم ولقمان في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور

Moral values in Surat Maryam and Surat Luqman in the interpretation of At-Tahrir wa At-Tanwir by Ibn Ashur

م.د اوس ناظم صالح

تخصص تفسير

Dr. Aws Nazim Saleh

specializing in interpretation

جامعة سامراء

Samarra University

Aws.nadhim@uosamarraedu.iq

الكلمات المفتاحية: عاشور , قيم , الاخلاق , مريم , لقمان

Keywords: Ashoor, Values, Morals/Ethics, Maryam, Luqman

الملخص

يتناول هذا البحث البعد الأخلاقي في القرآن الكريم، مركزاً على سورتي مريم ولقمان، من خلال تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، الذي يقدم رؤية مقاصدية وبلاغية للنص القرآني. يبرز البحث أهمية دراسة القيم الأخلاقية بوصفها ركيزة أساسية في بناء الفرد والمجتمع، ويهدف إلى تحليل المنظومة الأخلاقية في السورتين، وتصنيف القيم الواردة فيهما إلى فردية واجتماعية وروحية، مع إبراز التكامل بين البنية القصصية والوعظية والرسائل الأخلاقية. ويعتمد البحث على المنهج التحليلي لفهم الخطاب الأخلاقي، والمنهج الاستقرائي لحصر القيم، إضافة إلى منهج مقارن جزئي عند الحاجة لمقارنة القيم بين السورتين أو مع تفسيرات أخرى. ويستعرض البحث في المبحث الأول القيم الأخلاقية في سورة مريم مثل الصدق والصبر والرحمة والبر، مع تحليل أسلوب ابن عاشور في إبراز هذه القيم. بينما يعرض المبحث الثاني القيم الرئيسة في سورة لقمان مثل الحكمة والتوحيد والبر والتقوى، مع توضيح أسلوب التفسير المقاصدي في تقديمها. أما المبحث الثالث فيقارن بين القيم في السورتين ويحلل نقاط التشابه والاختلاف، كما يبين تأثير الموضوع القرآني على تركيز هذه القيم. وتخلص الدراسة إلى أن تفسير ابن عاشور يعكس رؤية شاملة ومتكاملة للبعد الأخلاقي في القرآن، مسهمًا في إثراء الدراسات القرآنية المعاصرة.

Abstract

This study examines the ethical dimension in the Qur’an, focusing on Surahs Maryam and Luqman, through Al-Tahrir wa al-Tanwir by Tahir ibn Ashur, which offers a Maqasid-based and rhetorical perspective on the Qur’anic text. The study highlights the importance of examining ethical values as a fundamental pillar in building both the individual and society. It aims to analyze the ethical system in the two surahs and classify the values into individual, social, and spiritual categories, while emphasizing the integration between the narrative structure, moral exhortation, and ethical messages.

The study relies on the analytical method to understand the ethical discourse, the inductive method to identify the values, and a partial comparative method when necessary to compare values between the two surahs or with other interpretations.

In the first section, the study reviews ethical values in Surah Maryam, such as truthfulness, patience, mercy, and righteousness, analyzing Ibn Ashur’s method in highlighting these values. The second section presents the main values in Surah Luqman, including wisdom, monotheism, righteousness, and piety, illustrating the Maqasid-based interpretive approach in presenting them. The

third section compares the values in the two surahs, analyzing points of similarity and difference, and examining the impact of the Qur'anic theme on the emphasis of these values.

The study concludes that Ibn Ashur's interpretation reflects a comprehensive and integrated vision of the ethical dimension in the Qur'an, contributing to enriching contemporary Qur'anic studies.

المقدمة

يحظى القرآن الكريم بمكانة مركزية في بناء المنظومة الأخلاقية في الإسلام، إذ لم تقتصر مقاصده على بيان العقائد والأحكام، بل سعى إلى تهذيب النفوس، وتقويم السلوك الإنساني، من خلال منظومة قيمية رفيعة. وقد جاءت سور القرآن متنوعة في أساليبها وسياقاتها، إلا أنها تتكامل في غاياتها، وفي مقدّمتها ترسيخ القيم الأخلاقية بما يُسهم في بناء الإنسان والمجتمع.

وفي هذا الإطار، تبرز سور مريم ولقمان بوصفهما نموذجين بيّنين لهذا البعد الأخلاقي، من خلال ما احتوته كل منهما من توجيهات ومواقف ومواعظ وأمثلة سلوكية، تجعل منهما أرضية خصبة لدراسة القيم الأخلاقية في السياق القرآني. ومن خلال تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، الذي يتميز برؤية مقاصدية وبلاغية، تزداد هذه السورتان ثراءً وتأويلاً.

أهمية الدراسة:

تتجلى أهمية هذه الدراسة في النقاط التالية:

- إبراز البعد الأخلاقي في القرآن الكريم بوصفه ركيزة تأسيسية في بنية الرسالة القرآنية.
- تسليط الضوء على التفسير المقاصدي عند ابن عاشور، بوصفه نموذجًا معاصرًا لقراءة النص القرآني في ضوء مقاصده التربوية والاجتماعية.
- تقديم معالجة تحليلية للقيم الأخلاقية في سورتي مريم ولقمان، للكشف عن وظائفها النفسية والاجتماعية كما ظهرت في التفسير.

إشكالية البحث:

كيف عالج الطاهر بن عاشور القيم الأخلاقية في تفسيره لسورتي مريم ولقمان؟

وما هي أبرز القيم التي ركّز عليها في هاتين السورتين؟

وكيف تندرج هذه القيم ضمن الرؤية المقاصدية الشاملة لتفسير التحرير والتنوير؟

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى:

1. تحليل المنظومة الأخلاقية التي عرضها ابن عاشور في تفسيره لسورتي مريم ولقمان
2. تصنيف القيم الأخلاقية الواردة فيهما (فردية، اجتماعية، روحية...).
3. إبراز المنهج المقاصدي والبلاغي الذي اتبعه ابن عاشور في استنباط الدلالات الأخلاقية.
4. بيان التكامل بين البنية القصصية/الوعظية في السورتين وبين الرسائل الأخلاقية المتضمّنة.
5. المساهمة في إثراء الدراسات القرآنية التي تعالج البعد الأخلاقي من منظور تفسيري معاصر.

المنهج المعتمد:

يعتمد البحث على:

المنهج التحليلي: من خلال تحليل الخطاب الأخلاقي في السورتين، كما فسره ابن عاشور.

المنهج الاستقرائي: بحصر وجمع القيم الأخلاقية المستنبطة من تفسير السورتين.

المنهج المقارن (جزئيًا): بمقارنة بعض القيم كما وردت في السورتين، أو مع ما أورده مفسرون آخرون (إذا اقتضى الأمر).

هيكل البحث:

يتكون البحث من مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث رئيسة، وخاتمة:

تمهيد: الإطار النظري والمنهجي

تعريف مختصر للقيم الأخلاقية في القرآن الكريم.

منهج ابن عاشور في تفسير التحرير والتنوير، خاصة في الجانب الأخلاقي والبلاغي.

المبحث الأول. القيم الأخلاقية في سورة مريم حسب تفسير ابن عاشور

بين يدي السورة.

أبرز القيم الأخلاقية التي تناولها ابن عاشور في تفسير السورة، مع أمثلة مختارة (الصدق، الصبر، الرحمة، البر).

شرح مختصر لأسلوب ابن عاشور في إبراز هذه القيم.

المبحث الثاني. القيم الأخلاقية في سورة لقمان حسب تفسير ابن عاشور

بين يدي السورة.

القيم الأخلاقية الرئيسة وفقًا لتفسير ابن عاشور (الحكمة، التوحيد، البر، التقوى).

أسلوب ابن عاشور في تقديم هذه القيم.

المبحث الثالث: مقارنة وتحليل موجز

نقاط التشابه والاختلاف في القيم بين السورتين في تفسير ابن عاشور.

تأثير الموضوع القرآني على تركيز القيم في التفسير.

الخاتمة: أبرز النتائج والتوصيات.

تمهيد: الإطار النظري والمنهجي

أولاً: تعريف مختصر للقيم الأخلاقية في القرآن الكريم.

ومن حيث اللغة، عرّف "لسان العرب" القيم بأنه الاستقامة والثبات، وقال في تفسير "القيّم": هو ما يقوم عليه الشيء، أي ما يشكّل عماده ونظامه وضبطه، ويُستفاد من هذا أن القيم ترتبط بنظام الحياة واستقامتها. (ابن منظور، ١٩٥٥، ١٢/ ٤٩٩)

وتشير القيم الأخلاقية في القرآن الكريم إلى المبادئ السلوكية التي ترسم للإنسان طريق الاستقامة والتزكية، وتضبط علاقته بربه وبنفسه وبالآخرين. وقد استُعملت مادة "قَوَمَ" في السياق القرآني للدلالة على معاني الاستقامة والثبات والاعتدال، كما في قوله تعالى:﴿ ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الروم: 43]، أي الدين المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، وهو الدين الذي اختاره الله لعباده ليهتدوا به في حياتهم الدنيوية والأخروية (الفقيه،١٤٣١ هـ، ٤)

أما من منظور اجتماعي وتربوي، فالقيم تُعرّف بأنها مجموعة من المعتقدات والمعايير التي يعتمدها الفرد أو المجتمع للحكم على الأشياء والأفكار والسلوكيات من حيث القَبول أو الرفض، الحُسن أو القُبح، وهي تُكتسب من خلال التفاعل والخبرة، وتنعكس في السلوك والمواقف (الكيلاني، ٢٠٠٩، ص427)

ويُنظر إلى القيم الأخلاقية في الإسلام بأنها أحكام معيارية مستمدة من القرآن والسنة، تُمثل مرجعية سلوكية للمسلم في تعامله مع الله ومع نفسه ومجتمعه، وتُشكّل جزءًا من بناء الشخصية المؤمنة المتزنة. (الرسول، ٢٠٠٤، ١١. ١٢)

ومن ثَمّ، فهي ليست اختيارات نسبية، بل مبادئ ملزمة تؤسّس لهوية المسلم وتضبط سلوكه ضمن منظومة متكاملة تهدف إلى تحقيق الخير العام والكرامة الإنسانية. (أبو مغلي وآخرون، ٢٠٠٢، ١٦٧)

ثانياً: منهج ابن عاشور في تفسير التحرير والتنوير، خاصة في الجانب الأخلاقي والبلاغي.

أولى الإمام محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير عناية بالغة بالجوانب الأخلاقية، من خلال ربطه المنسجم بين القيم القرآنية ومقاصد الشريعة، ومنهجه القائم على التحليل المقاصدي واللغوي معًا. وقد تجلت معالم منهجه الأخلاقي في النقاط التالية:

1-ربط الأخلاق بالمقاصد الشرعية يُعدّ ابن عاشور من أبرز من ربط بين الأخلاق القرآنية ومقاصد الشريعة، معتبرًا أن الأخلاق ليست مجرد أوامر سلوكية، بل هي وسائل لتحصيل المقاصد الكبرى من الشريعة الإسلامية كحفظ الدين والنفس والمال. يقول عند تفسير قوله تعالى:﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ ﴾[النحل: 90]."هذه الآية أجمع آية في القرآن للمحاسن الخلقية، ولذلك كانت تُتلى في خطب الخلفاء الراشدين، وقد اشتملت على أصول الفضائل الخلقية والمدنية والدينية" (ابن عاشور، ١٩٨٤، ٢٠٥/١٤) (الطبري، د.ت، 162/17).

2-قراءة القيم في سياقها العملي يقرأ ابن عاشور القيم ضمن السياق القرآني والواقعي معًا، ويُظهر تماسك البناء الأخلاقي في ضوء العقيدة والعمل. ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى:﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧ ﴾[البقرة: 177]، إذ يقول: "بيَّن أن البر الحقيقي ليس مجرد الشعائر الظاهرة، وإنما هو مظهر من مظاهر الإيمان الحق، يتجلى في العمل الصالح، وإغاثة المحتاج، والصبر، وهو بر جامع بين الاعتقاد والعمل والخلق" (ابن عاشور، ١٩٨٤، ٢/ ١٨٢)، ليس البر أن تصلوا ولا تعملوا غير ذلك. قال ابن جريج، وقال مجاهد: "ليس البرّ أن تُولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب" يعني السجود؛ ولكنّ البر ما ثبت في القلب من طاعة الله. ... وذكر أن هذه الآية نزلت بالمدينة، وقد كانت اليهود تُوجَّه قبل المغرب، والنصارى قبل المشرق، فقرئ القول: "ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب" ثم قال: "ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر..."(الطبري، د.ت، 205/1)

3-النقد الأخلاقي لسلوك الأمم يُبرز ابن عاشور مظاهر الانحراف الأخلاقي في سلوك الأمم السابقة كما عرضها القرآن، ويحلل أسبابها وآثارها، مؤكدًا أن الانحطاط الأخلاقي هو من أعظم أسباب سقوط الحضارات. ففي تفسيره لقصة قوم لوط مثلًا، يقول: "والإغراق في الفحشاء مَظْهَرٌ من مظاهر انتكاس الفطرة التي إذا عَمَّت استوجبت العقوبة الإلهية" (ابن عاشور، ١٩٨٤، ٩/ ٢٠٣)

ويُعدّ الإمام محمد الطاهر بن عاشور من أبرز المفسرين الذين أولوا البلاغة القرآنية عناية خاصة، بوصفها مفتاحًا لفهم إعجاز القرآن وبيان معانيه العميقة. وقد بنى تفسيره البلاغي على أسس علمية دقيقة استمدها من خبرته الواسعة في علوم اللغة والبلاغة والأصول، ويمكن تمييز أبرز ملامح هذا المنهج في النقاط التالية:

1-التحليل البلاغي للمقاصد ابن عاشور لا يكتفي بالشرح اللغوي المجرد، بل يربط الصورة البلاغية بالمقصد القرآني، ويكشف عن الأبعاد النفسية والاجتماعية الكامنة في التركيب. ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٣٥ ﴾[النور: 35]، يقول: "هذا التمثيل من أبلغ التمثيل بالهيئة، وهو مشحون بجوامع البلاغة من حيث اختيار مكونات الصورة وتماثل أجزائها مع المعنى المقصود، وهو الهداية والتنوير العقلي". (ابن عاشور، ١٩٨٤، ١٨/ ٢١٧).

2-تمييز الأساليب وعلل التعبير يتتبع ابن عاشور الأسرار الدقيقة في اختيار الألفاظ، وصيغ الأفعال، والأساليب الإنشائية والخبرية، ويُبين علاقتها بالسياق والبلاغة. ففي قوله تعالى:﴿﴿ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧ ﴾[البقرة: 137]، يقول: "في التعبير بالسين والتوكيد إشعار بعِظم الحماية الإلهية وتأكيد وقوعها، وفيه ما يُفزع العدو ويطمئن قلب النبي". (ابن عاشور، ١٩٨٤، ٢/ ٨٦).

3-تحرير المعنى من خلال علم المعاني اعتمد ابن عاشور كثيرًا على مبادئ علم المعاني لتفصيل الفروق الدقيقة بين أساليب التعبير. وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢ ﴾[الفجر: 22]، يوضح أن: "المجيء هنا مجاز عن تجلي عظمة الله بأمره وقضائه، على طريقة التمثيل، مما يدخل في علم البيان". (ابن عاشور، ١٩٨٤، ٣٠/ ٢٢٩)

4-العناية بالتركيب والسياق ومن أبرز ما يميز منهجه البلاغي، ربطه بين الجملة وسياقها النصي الأوسع، ما يجعله يكتشف وجوه التناسق البلاغي بين الآيات والسور. ففي تفسيره لافتتاحية سورة مريم بقوله: (كهيعص)، يشير إلى أن هذا الافتتاح يهيئ القارئ للدخول في عالم النبوّة والتعجب من قدرة الله، فيقول: "هذا الطابع الصوتي في أوائل السورة يتناسب مع طابع الخشوع والتعجب الذي يطبع السورة كلها...". (ابن عاشور، ١٩٨٤، ١٦/ ٥)

منهج ابن عاشور البلاغي في التحرير والتنوير يتجاوز التفسير الظاهري إلى تفسير جمالي عقلي، يربط المعنى بالمقصد، واللفظ بالحالة، والبيان بالمضمون العقدي والأخلاقي، مما يجعل عمله نموذجًا حيًّا لتداخل علوم البلاغة والتفسير والمقاصد في خدمة النص القرآن.

المبحث الأول. القيم الأخلاقية في سورة مريم حسب تفسير ابن عاشور

المطلب الأول: بين يدي السورة.

تُعدّ سورة مريم من السور المكية، وهي التاسعة عشرة في ترتيب المصحف، والرابعة والأربعون في ترتيب النزول، وقد نزلت في السنة الرابعة من البعثة بعد سورة فاطر وقبل سورة طه. وسبب تسميتها بهذا الاسم هو ورود قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام فيها، وقد روي عن رجل أتى النبي ﷺ فقال له: ولدت لي الليلة جارية فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «والليلة أنزلت علي سورة مريم سمها مريم فكانت تسمى مريم» (رواه الطبراني، د.ت، ٢٢/ ٣٣٢).

تتضمن السورة عددًا من المقاصد العقدية والتربوية والروحية، ويمكن إجمال أبرزها فيما يلي:

1-الرد على اليهود والنصارى فيما نسبوه زورًا إلى مريم وابنها عليهما السلام، وذلك بتأكيد طهارتها، وقداسة ابنها، وصدق نبوته، وبراءتها من كل تُهمة. كما تفصل السورة في قضية عيسى عليه السلام التي كثر فيها الجدل بين الطوائف.

2-تأكيد الوحدانية الإلهية وتنزيه الله سبحانه عن اتخاذ الولد، وذلك في مواجهة دعاوى النصارى والمشركين، وقد ورد في السورة التنديد بهذه العقيدة بما يهز أركان التصور العقدي المنحرف لقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ ﴾[مريم: 88-89].

3-إثبات البعث والنشور، وإبطال شبهات منكريه، مع تصوير دقيق لمشاهد القيامة من بعث المتقين وسوق المجرمين، وبيان حالهم عند الحساب: ﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ٨٥ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ٨٦ ﴾[مريم: 85-86].

4-بيان قدرة الله المطلقة في الخلق والتكوين، من خلال عرض قصة زكريا ويحيى عليهما السلام، حيث وُهب له الولد في حال الكِبَر والعُقم، ثم قصة مريم التي حملت بعيسى من غير أب، في تجلٍّ للقدرة الخارقة على الخلق بغير أسباب مألوفة (ينظر: ابن عاشور، ١٩٨٤م، ج16، ص3-9).

5-تثبيت النبي ﷺ والمؤمنين، من خلال عرض سير الأنبياء السابقين: زكريا، يحيى، عيسى، إبراهيم، موسى، إدريس، إسماعيل -عليهم السلام- وما واجهوه من مِحن وثبات على الحق، لتكون السورة مصدر عزاء وقوة للنبي في وجه التكذيب.

6-الدعوة إلى الصبر والمجاهدة، كما في قوله تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥ ﴾[مريم: 65]، وهو خطاب للنبي ﷺ وللمؤمنين عمومًا في وجوب الثبات على الطاعة.

7-التحذير من فساد العقائد وانحراف الخلف، فقد عرضت السورة حال الذين جاءوا بعد الأنبياء، من أهل الكتاب والمشركين، وكيف بدلوا وغيّروا، فاستحقوا اللوم الإلهي لقوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ٥٩ ﴾[مريم: 59].

8-الربط بين الرحمة والربوبية، إذ تكررت صفة "الرحمن" في السورة ست عشرة مرة، مما يدل على أن من أعظم مقاصد السورة تحقيق وصف الله بالرحمة، والرد على المكابرين في إنكار هذا الاسم الكريم، يوضّح الطبري أنّ المقصود بقوله «اسجدوا للرحمن» إخلاص السجود لله وحده، وأنّ ردّ المشركين «وما الرحمن» دليل على جهلهم وجحودهم، وأنّ ذلك زادهم نفورًا عن الإيمان (ينظر: الطبري، د.ت، 353/1).

9-بيان عاقبة المكذبين، واختتام السورة بمشهد مؤثر من مصارع الأمم قوله تعالى:﴿﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍۖ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ٩٨ ﴾﴾[مريم: 98] (ابن عاشور، 1428هـ/2007، ص392).

المطلب الثاني: أبرز القيم الأخلاقية في سورة مريم

1. الصدق

الصِّدقُ ضِدُّ الكَذِبِ، وأصلُ (صدق) يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا وغيرَه، ومن ذلك الصِّدقُ سُمِّي بذلك لقُوَّتِه في نفسِه، ولأنَّ الكَذِبَ لا قُوَّةَ له، هو باطِلٌ، وقيل: هو في أصلِ اللُّغةِ: ثباتُ الشَّيءِ، ويقالُ: صَدَّقَه: قَبِلَ قولَه، وصَدَقَه الحديثَ: أنبَأَه بالصِّدقِ، ويقالُ: صَدَقْتُ القومَ، أي: قُلتُ لهم صِدقًا، وتصادَقَا في الحديثِ وفي المودَّةِ. (يُنظَر: ابن فارس، 1399هـ/1979م، (339/3)، ابن منظور، 1414هـ، (193/10)

وقال الرَّاغِبُ الأصفهانيُّ: (الصِّدقُ مطابقةُ القولِ الضَّميرَ والمخبَرَ عنه معًا، ومتى انخرم شرطٌ من ذلك لم يكُنْ صِدقًا تامًّا) (يُنظَر: الراغب الأصفهاني،٢٠٠٧، ص: 270)

يرى ابن عاشور أن الصدق قيمة مركزية في السورة، تجسدت في صدق الأنبياء مع الله ومع الناس رغم الشدائد، كما في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام. ويقول في تفسير قوله تعالى:﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ ﴾(مريم: 12).

إن مصداقية يحيى نابعة من صدقه مع الله في الرسالة، وصدقه في أفعاله وأقواله، وهو نموذج للإخلاص والصدق في الدعوة. (ينظر: ابن عاشور، ١٩٨٤، ج16، ص12).

2. الصبر

الصبر في اللغة نقيض الجزَع، وأصله: حبسٌ أو إمساكٌ في ضيق، والصبور: القادر على الصبر، والصبار: يقال إذا كان فيه ضرب من التكلف والمجاهدة. (ينظر: ابن فارس، 1399هـ/1979م. 3: 256).

أما اصطلاحًا: فهو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه، (ينظر: الراغب، ١٤١٢هـ، 1: 565) وقيل: هو حبس النفس عن الجزع والسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش، (ينظر: بصائر ذوي التمييز 3: 223) وقيل: الصبر قوة مقاومة الأهوال والآلام الحسية والعقلية. (المناوي، ١٩٩٠م، ص447.).

يركز ابن عاشور على صبر الأنبياء والمرسلين على البلاء والابتلاء، ويبرز ذلك في قصة زكريا الذي صبر على كبر السن وعدم القدرة على الإنجاب، فصبر وانتظر معجزة الله. وفي قوله تعالى:﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١ ﴾(مريم: 21)،

يشير ابن عاشور إلى أن هذا الابتلاء امتحان لصبر زكريا، وهو من القيم التي تبني قوة النفس وتؤهلها للثبات. (ابن عاشور،١٩٨٤ م، ج16، ص7) (ابن عاشور، 1428هـ/2007، -ما يكره من الشيء يجعل في سبيل الله، ص224).

3. الرحمة

الرَّحمةُ: في اللغة مِن رَحِمه يَرحَمُه، رحمةً ومَرحَمةً: إذا رقَّ له، وتعطَّف عليه، وأصلُ هذه المادَّةِ يدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطفِ والرَّأفةِ، وتراحَمَ القومُ: رَحِم بعضُهم بعضًا، ومنها الرَّحِمُ: وهي علاقةُ القَرابةِ، وقد تُطلَقُ

الرَّحمةُ ويرادُ بها ما تقعُ به الرَّحمةُ، كإطلاقِ الرَّحمةِ على الرِّزقِ والغَيثِ (يُنظَر: ابن فارس، 1399هـ/1979م، ٢/ ٤٨٠)، (ابن منظور، 1414هـ، (٢٣٠/١٢).

الرَّحمةُ اصطِلاحًا:

(الرَّحمةُ رِقَّةٌ تقتضي الإحسانَ إلى المرحومِ، وقد تُستعمَلُ تارةً في الرِّقَّةِ المجرَّدةِ، وتارةً في الإحسانِ المجرَّدِ عن الرِّقَّةِ) (الراغب، ١٤١٢هـ، 1: ٣٤٧) (ابن عاشور، 2004، 186/2)

تكررت صفة الرحمن في السورة كثيرًا، وهذا دليل عند ابن عاشور على أن الرحمة قيمة أساسية يربطها الله بخلقه. كما بيّن في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦ ﴾(مريم: 96)، فهي رحمة متبادلة بين الله وعباده، وأيضًا من صفات الإنسان المؤمن أن يكون رحيمًا بالناس، كما عُلّق في سير الأنبياء (ابن عاشور، ١٩٨٤، 45/16).

4. البر

البِرُّ: في اللغة الصِّدقُ والطَّاعةُ والخيرُ والفَضلُ، وبَرَّ يَبَرُّ: إذا صَلَح. وبَرَّ في يمينِه يَبَرُّ: إذا صدَقَه ولم يحنَثْ. وبَرَّ رَحِمَه يَبَرُّ: إذا وصَلَه. ويقالُ: فلانٌ يَبَرُّ رَبَّه ويتبَرَّرُه، أي: يطيعُه. ورجُلٌ بَرٌّ بذي قرابتِه، وبارٌّ، من قومٍ بَرَرةٍ وأبرارٍ، والمصدَرُ: البِرُّ. والبَرُّ: الصَّادِقُ أو التَّقِيُّ، وهو خِلافُ الفاجِرِ، والبِرُّ: ضِدُّ العقوقِ. وبَرِرْتُ والِدي بالكَسرِ، أبَرُّه بِرًّا، وقد بَرَّ والِدَه يَبَرُّه ويَبِرُّه بِرًّا، وهو بَرٌّ به وبارٌّ، وجمعُ البَرِّ الأبرارُ، وجمعُ البارِّ البَرَرةُ. (ابن منظور، ١٤١هـ، 51/4)

قال الرَّاغِبُ: (البِرُّ:... التَّوسُّعُ في فِعلِ الخيرِ) (الأصفهاني، ص: 114).. وقال المُناويُّ: (البِرُّ...التَّوسُّعُ في فِعلِ الخيرِ، والفِعلُ المرضِيُّ، الذي هو في تزكيةِ النَّفسِ...) (المناوي،١٩٩٠م، ١٢٢). قال تعالى:﴿ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ ﴾(مريم:32)

برز البر في السورة من خلال بر الأنبياء لذويهم وللمجتمع، وتقديم المصلحة العامة على الذاتية، كما في قصة إبراهيم الذي برّ والديه ودعا لهما مع ترك معصيتهما وبر سيدنا اسماعيل لقوله تعالى:﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ ﴾(مريم: 54)، وفي تفسير ابن عاشور، البرُّ يظهر في الالتزام بطاعة الله، وإحسان الظن بالناس، والحرص على صلاح النفوس والأسر (ابن عاشور، ١٩٨٤، 50/16).

يؤكد ابن عاشور أن القيم الأخلاقية في سورة مريم ليست مجرد مبادئ نظرية، بل هي معايير سلوكية تتجلى في مواقف الأنبياء والصالحين، وتُعلّم المؤمنين الثبات على الحق، والرحمة، والتسامح، والصدق مع النفس والناس.

المطلب الثالث: أسلوب ابن عاشور في تقديم القيم الأخلاقية في سورة مريم

يتميّز ابن عاشور بمنهج تفسيري متعدّد الأبعاد، يعكس تكوينه الأصولي واللغوي والبلاغي، وقد انعكس هذا بوضوح على أسلوبه في استنباط القيم الأخلاقية في سورة مريم، ويتّسم أسلوبه بما يلي:

1-الربط بين القيم والسياق القصصي القرآني لا يقدّم ابن عاشور القيم بوصفها مجرد مبادئ مجرّدة، بل يربطها بالسياق القصصي؛ فيُظهر كيف تتجسّد القيم من خلال مواقف الأنبياء وأحوالهم، فيربط مثلًا بين خلق البر وبين وصف عيسى ويحيى عليهما السلام بعبارة: "وبَرًّا بوالدتي"، "وبرًّا بوالديه"، ثم يعلّق قائلاً إن هذا البر ليس مجرد خُلق فردي، بل هو من علامات النبوّة، ودليل على التربية الإلهية للأنبياء. (ينظر: ابن عاشور، ١٩٨٤، 16/20-22)

2-التحليل البلاغي واللغوي للكشف عن القيم: ابن عاشور يوظّف علم البلاغة في تحليل ألفاظ الآيات، للكشف عن دلالات أخلاقية عميقة. مثلًا، في قوله تعالى:﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾(ال عمران:39)، يبيّن أن تصوير زكريا في حال قيامه بالصلاة يدلّ على الخشوع والخضوع والتقوى، ثم يستنتج أن هذه الحال مظهر من مظاهر التربية الأخلاقية للأنبياء. (ينظر: ابن عاشور، ١٩٨٤، 9/16)، (ابن عاشور، 1433هـ، ص12-45).

3-تفسير القيم من خلال المقاصد العليا للشريعة: ينظر ابن عاشور إلى أن القيم التي تضمّنتها سورة مريم تخدم مقاصد الشريعة في حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والعرض، فخلق العفاف مثلًا – كما في قصة مريم – ليس مجرد خُلق، بل هو ركن في صيانة العرض والنسل، وفيه رد على المفاسد العقدية والاجتماعية. (ابن عاشور، 16،١٩٨٤/28-30)

4-تضمين النقد الخُلقي لأهل الانحراف أسلوب ابن عاشور لا يكتفي بتقرير القيم، بل يبرزها أحيانًا من خلال نقد سلوك الأقوام المنحرفة، كما في تعقيبه على الآيات التي تتحدث عن الذين تركوا الصلاة واتّبعوا الشهوات، حيث يرى أن الانحراف الخلقي بدأ من ترك العبادة، ثم تعاظم حتى وصل إلى التمرد العقدي، فصار بيان القيم في السورة قائمًا على المفارقة بين النموذج السليم والمنحرف. (ينظر: ابن عاشور، ١٩٨٤، 16/55)

5-استحضار أثر القيمة في بناء الفرد والمجتمع في كل قيمة تقريبًا، يُظهر ابن عاشور أثرها العملي في الفرد والمجتمع. فـ"الصبر" عند زكريا ليس مجرد تحمل، بل هو ما جعل دعاءه مثمرًا، و"الرحمة" في خطاب

الله بـ"الرحمن" تتكرر لتغرس في النفوس الإيمان بلطافة الشريعة، وتدفعها لتقليد هذا الخلق في التعامل مع الناس.

أسلوب ابن عاشور في تقديم القيم الأخلاقية يجمع بين التأصيل التفسيري والتحليل البلاغي والمقاربة المقاصدية، ما يجعل عرضه لهذه القيم ليس مجرد شرح لغوي أو سرد مواعظي، بل رؤية شاملة تدمج القيم بالعقيدة والسلوك، وتربطها بالسياق القرآني والعبرة الأخلاقية والاجتماعية.

المبحث الثاني. القيم الأخلاقية في سورة لقمان حسب تفسير ابن عاشور

المطلب الأول: بين يدي السورة.

تُعَدّ سورة لقمان من سُور القرآن المكّية، كما أخرج البيهقي في الدلائل، وابن الضُّرَيس، وابن مردويه، عن ابن عباس –رضي الله عنهما–، ونقل النحاس في تاريخه، عن ابن عباس أيضاً أنّها نزلت في مكّة المكرّمة باستثناء ثلاث آياتٍ منها؛ وهنّ آخر ثلاثٍ من السورة المبدوءة بقول الله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[سورة لقمان، آية: 27)، وتتضمّن السورة أربعاً وثلاثين آيةً.

سبب تسمية سورة لقمان لم يُروَ عن النبيّ –عليه الصلاة والسلام– بسندٍ صحيحٍ بيان السبب في تسمية سورة لقمان بهذا الاسم، وإنّما عُرِفت بذلك بين قُرّاء القرآن ومُفسّريه؛ إذ قالوا إنّ سبب تسمية السورة بهذا الاسم يرجع إلى أنّها تضمّنت ذكر لقمان الحكيم، وحِكَمِهِ التي وردت في معرض تأديبه لابنه، ووعظه له. (ابن عاشور، ١٩٨٤، ٢١/ ١٣٧) (الصافي، 2019، ص308).

المطلب الثاني: القيم الأخلاقية الرئيسة وفقًا لتفسير ابن عاشور (الحكمة، التوحيد، البر، التقوى).

تمثل سورة لقمان إحدى السور المكية التي تبرز التوجيه الأخلاقي والتربوي في الخطاب القرآني، وتُقدِّم نموذجًا حيًّا في التربية الحكيمة من خلال وصايا لقمان لابنه. وقد اعتنى الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير ببيان الأبعاد الأخلاقية لهذه السورة، من خلال تحليل السياق القرآني والكلمات المفتاحية التي ترسم معالم منظومة أخلاقية متكاملة. وتتمحور القيم الرئيسة في السورة حول أربع ركائز أساسية: الحكمة، التوحيد، البر، والتقوى، تتكامل لتؤسس للإنسان وعيًا أخلاقيًا سلوكيًا يضبط علاقته بربه، وبذاته، وبغيره.

أولاً: **الحكمة** – جوهر العقلانية الأخلاقية تفتتح السورة بيانها الأخلاقي بالإشارة إلى أن لقمان قد أوتي الحكمة لقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾[لقمان: 12]، وقد وقف ابن عاشور طويلًا عند دلالة الحكمة، موضحًا أنها ليست مجرد معرفة عقلية، بل هي "العلم المصحوب بالعمل الصالح، وسداد الرأي، والنظر الصائب في العواقب"، فهي تشمل النظر الثاقب والإدراك العملي للأمور (ابن عاشور، 21،١٩٨٤/7) (ابن عاشور، 2004، ج1، ص198).

ويرى أن ربط الحكمة بالشكر مباشرةً إنما يعبّر عن أن الحكيم هو الذي يستدلّ بعقله على عظمة الخالق، فيعرف الفضل ويقابله بالعرفان. وتمثّلت مظاهر هذه الحكمة لاحقًا في وصايا لقمان التي لم تقتصر على العقيدة، بل شملت السلوك الفردي والاجتماعي (الصلاة، الصبر، التواضع، نبذ الخيلاء). وقد أكّد ابن عاشور أن "الحكمة رأس الخصال التي تُثمر مكارم الأخلاق" (المصدر نفسه).

ثانيًا: **التوحيد** – أساس البناء الأخلاقي

جاءت وصية لقمان لابنه بالتوحيد قبل كل شيء قال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾[لقمان: 13]، وقد علّق ابن عاشور بأن هذه الآية "تمثل أعظم ما ابتدأ به لقمان وصاياه، لأن التوحيد أصل الإصلاح، والشرك فساد في أصل الفطرة والدين" (ابن عاشور، ١٩٨٤، 10/21). ويضيف أن وصف الشرك بالظلم العظيم دليل على أن الانحراف العقائدي ليس مجرد خطأ فكري، بل هو خرق لميزان العدل والحق في الكون.

ويرى ابن عاشور أن العقيدة التوحيدية تُعدّ "الميزان الأخلاقي الأعلى"، فبها تُضبط النيات وتُبنى المقاصد، وهو ما يجعل التوحيد قاعدة لجميع الفضائل. وقد ربط بين الشرك وسوء السلوك، مؤكدًا أن "فساد المعتقد يفضي إلى فساد السلوك، وانهيار المجتمع" (المصدر نفسه).

ثالثًا: **البرّ** – خُلق الاعتراف والرحمة

بعد تقرير التوحيد، انتقل الخطاب إلى قيمة البر، وبخاصة برّ الوالدين: قال تعالى:﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[لقمان: 14]، وقد استخلص ابن عاشور أن هذه القيمة تأتي في المرتبة التالية للتوحيد مباشرةً، لأنها تُجسّد خُلق الاعتراف بالفضل، والإحسان في المقابل. وبيّن أن الأمر بالبرّ جاء بأسلوب الوصية الإلهية المباشرة، مما يدل على "أهمية هذا الخلق في ميزان الشريعة" (ابن عاشور، ١٩٨٤، 21/ 11).

ورأى ابن عاشور أن ذِكر المشقة في الحمل والفطام (في الآية نفسها) يراد به تذكير الإنسان بتضحيات الوالدين، ليقابل ذلك بالشكر واللطف، لا بالجفاء. ومع ذلك، أوضح أن البر لا يعني الطاعة المطلقة، فلو أمر الوالدان بالشرك، فلا طاعة لهما لقوله تعالى:﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[لقمان: 15]، مؤكدًا أن الطاعة مشروطة بعدم التناقض مع أصل التوحيد، مع بقاء الصحبة بالمعروف (نفسه) (ابن عاشور، 2004، 679/1).

رابعًا: **التقوى** – مراقبة الله وبناء الضمير

التقوى من القيم المركزية في السورة، وقد تجلت في قول لقمان لابنه قوله تعالى:﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ ﴾[لقمان: 16]، ويعلّق ابن عاشور بأن هذه الآية ترسّخ قيمة المراقبة الذاتية، إذ تُصور علم الله بالأعمال مهما دقّت أو خفيت، مما يغرس في النفس الخشية الداخلية واليقظة المستمرة (ابن عاشور، ١٩٨٤، 13/21).

وقد أشار إلى أن هذه الصورة البلاغية تهدف إلى "تربية الضمير" لدى الفرد، وجعل التقوى وازعًا داخليًا يحكم الأفعال بعيدًا عن الرقيب الخارجي. والتقوى عند ابن عاشور ليست مجرد شعور، بل هي "حالة دائمة من الحذر الروحي، تدفع إلى الاستقامة والبعد عن مواطن الريبة".

يتضح من خلال تحليل ابن عاشور لسورة لقمان أن البناء الأخلاقي في القرآن يتسم بالتدرّج والاتساق: يبدأ من العقيدة (التوحيد)، ويمتد إلى الضمير (التقوى)، ويتجلى في العلاقات الإنسانية (البرّ)، ويقوم على عقلانية راشدة (الحكمة). وهذه القيم الأربع تشكّل في مجموعها ميثاقًا أخلاقيًا يصلح لأن يكون أساسًا في التربية الإسلامية، كما تعكس عمق المنهج القرآني في الربط بين الإيمان والعمل، وبين الفكر والسلوك.

المطلب الثالث: أسلوب ابن عاشور في تقديم هذه القيم.

أسلوب ابن عاشور في تقديم القيم الأخلاقية في سورة لقمان يتميّز بخصوصية لغوية ومنهجية تبرز بوضوح في التحرير والتنوير، ويمكن تلخيص ملامحه الرئيسة في النقاط التالية:

أولًا: الجمع بين التحليل البلاغي والتربوي ابن عاشور لا يكتفي بالتفسير اللغوي أو العقدي، بل يتوسّع في استخراج الدلالات التربوية والأخلاقية من الألفاظ والتراكيب. ففي قوله تعالى:﴿﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ١٢ ﴾﴾[لقمان: 12]، لا يفسر "الحكمة" تفسيرًا لغويًا مجردًا، بل يُعمّق معناها بما يرتبط بـ"سداد الرأي، وصحة الفكر، والتصرف القويم"، ويُبرز علاقتها بالشكر، مشيرًا إلى أن "الحكمة تؤتي ثمرتها في السلوك والوجدان" (ابن عاشور، ١٩٨٤م، 7/21).

ثانيًا: الاستنباط المقاصدي والربط بالسلوك: ينتهج ابن عاشور منهجًا مقاصديًا في التفسير، إذ يربط كل قيمة بمآلها العملي في حياة الفرد والمجتمع. فهو لا يفسر التوحيد مثلاً كمسألة اعتقادية فقط، بل يُبرزه

كـ"أساس في الإصلاح الفردي والاجتماعي"، ويبيّن أن الشرك يؤدي إلى "فساد شامل في الفكر والسلوك" (10/21). كما يُبرز برّ الوالدين بوصفه ترجمة عملية لقيمة الاعتراف بالفضل، لا مجرد امتثال شكلي.

ثالثًا: التدرّج في عرض القيم وفق الأولويات الشرعية

تُعرض القيم في السورة –وفي تفسير ابن عاشور لها– بترتيب مقصود: تبدأ بالتوحيد، ثم تنتقل إلى البرّ، فالتقوى، ما يدل على فهم ابن عاشور لطبيعة البناء التربوي في القرآن. وقد علّق على هذا التدرّج بقوله: "بدأت الوصايا بأعظمها، وهو التوحيد، ثم بما يليها من الحقوق، ثم بما يربي النفس على ضبط السلوك" (9/21).

رابعًا: الاستعانة بالتصوير البياني لتقريب القيم يستثمر ابن عاشور الصور البيانية القرآنية لشرح الأثر النفسي للقيم. فحين يفسر الآية:﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ ﴾[لقمان: 16]،

يُبيّن كيف تُربي هذه الصورة التقوى الداخلية في النفس، معتبرًا أنها "تصور سعة علم الله بطريقة تهز الضمير وتحيي المراقبة الذاتية" (13/21).

خامسًا: توازن بين التأصيل الشرعي والشرح العقلي يحرص ابن عاشور على أن يوازن بين الاستدلال بالنصوص وبين الشرح العقلي المتزن، فهو يُفصّل في معنى الشرك وآثاره لا من باب التنديد فقط، بل يُحلله في ضوء الفطرة، والعقل، والمجتمع. وكذا في قيمة الحكمة، يربطها بالقدرة على إدارة النفس والأسرة والحياة، لا بمجرد المعرفة.

المبحث الثالث: مقارنة وتحليل موجز

المطلب الأول: نقاط التشابه والاختلاف في القيم الأخلاقية بين سورتي مريم ولقمان:

تبرز في تفسير ابن عاشور وحدة المقاصد الأخلاقية في سور القرآن، ومن ذلك ما يظهر في مقارنته الضمنية بين القيم الأخلاقية في سورتي مريم ولقمان، إذ تتجلى في كلتا السورتين منظومة متكاملة من القيم، تتقدّمها قيمة التوحيد التي تشكل محورًا تأسيسيًا. ففي سورة لقمان، يتصدّر النهي عن الشرك وصايا لقمان لابنه: قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾[لقمان: 13]،

ويعلّق ابن عاشور بأن التوحيد هو "أسُّ الإصلاح الديني والأخلاقي"، و"ميزان العقل السليم" (ابن عاشور، ١٩٨٤، 10/21) (ابن عاشور، 2004، 199/1). أما في سورة مريم، فإن التوحيد يُبرز بصورة شديدة النبرة في رفض نسبة الولد إلى الله: قال تعالى:﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾[مريم: 88–90]،

ويفسر ابن عاشور ذلك بأنه "تهويل لخطر الشرك في عقيدة التوحيد"، وبيان لما يُحدثه في نظام الكون من اضطراب (التحرير والتنوير، 132/16).

ومن القيم المشتركة بين السورتين كذلك برّ الوالدين، حيث يُذكر في سورة مريم في سياق مدح يحيى:﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾[مريم: 14]،

وفي وصف عيسى عليه السلام: ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾[مريم: 32]،

ويعلق ابن عاشور بأن هذا البر "مظهر من مظاهر الأخلاق النبوية، وقرينة على اكتمال النفس واستواء الفطرة" (التحرير والتنوير، 130/16)، وفي سورة لقمان، يتجلى بر الوالدين في وصية مباشرة في قوله تعالى:﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[لقمان: 14]، ويُفصل ابن عاشور في سياقها الدلالة التربوية على التوازن بين الطاعة والإيمان، موضحًا أن "البر لا يلغي التمييز العقدي، لكنه يحفظ كرامة العلاقة" (11/21).

أما من حيث الاختلاف في المعالجة، فتميل سورة مريم إلى تصوير القيم من خلال سِيَر الأنبياء والرسل، فالقيم تُستنبط من المواقف الحياتية: الرحمة، التواضع، الصبر، البر، كلها تظهر في أقوال وأحوال زكريا ومريم ويحيى وعيسى. بينما تعتمد سورة لقمان على أسلوب الوصايا المباشرة والتعليم الأبوي، إذ تُعرض

القيم بوصفها توجيهات عملية في إطار تربية أخلاقية، وهو ما رآه ابن عاشور مثالًا على "الأسلوب التربوي في الخطاب القرآني" (9/21).

المطلب الثاني: تأثير الموضوع القرآني على تركيز القيم في التفسير.

تأثير الموضوع القرآني على تركيز القيم في تفسير ابن عاشور واضح وجلي، إذ إن موضوع السورة ومقاصدها الأساسية يشكّلان الإطار الذي يُبنى عليه اختيار القيم وتسليط الضوء عليها. ففي تفسيره، لا يعمد ابن عاشور إلى تقديم القيم بشكل معزول أو عام، بل يُبرزها تبعًا لموضوع السورة وهدفها القرآني.

على سبيل المثال، في سورة لقمان، التي تتمحور حول وصايا لقمان الحكيم لابنه، يركز ابن عاشور على قيم الحكمة والتوحيد والبر والتقوى باعتبارها تشكّل جوهر الرسالة التربوية في السورة، التي تهدف إلى بناء شخصية متوازنة عقلية وروحية وأخلاقية، قادرة على التعامل مع الحياة بفطنة وعقلانية (ابن عاشور، ١٩٨٤، 7/21–14). لذا يظهر التركيز على الحكمة باعتبارها سمة مميزة للسورة، كما يبرز التوحيد كأساس عقائدي لا غنى عنه.

أما في سورة مريم، فالموضوع القرآني يتمحور حول سير الأنبياء وخصوصًا قصة مريم وعيسى عليه السلام، فتركز قيم التفسير عند ابن عاشور على الإيمان والتوحيد، والصبر، والرحمة، والبرّ كما تظهر في شخصية الأنبياء، ويتناولها ابن عاشور من خلال سرديات قصصية تعكس تلك القيم وتجعلها جزءًا من بناء شخصية المؤمن (ابن عاشور، ١٩٨٤، 16/125–135).

هذا يعني أن الموضوع القرآني، بصفته إطارًا محوريًا، يوجه دفة التفسير نحو إبراز القيم التي تخدم ذلك الموضوع، وتمنحه بعده العملي والتربوي، مما يجعل التفسير عند ابن عاشور متكاملًا بين الدلالة النصية والغايات الأخلاقية والروحية، فلا تُعرض القيم إلا في سياق موضوعي محدد يتناسب مع السورة وأهدافها.

الخاتمة

يتبيّن من خلال تحليل تفسير ابن عاشور لسورتي مريم ولقمان أن القيم الأخلاقية لا تُعرض عنده عرضًا مجرّدًا، بل ترتبط بالسياق الموضوعي لكل سورة. فالتفسير عنده ذو بعد تربوي عميق، يهدف إلى بناء إنسان متوازن في إيمانه وسلوكه، وتنعكس القيم في أقوال الأنبياء وحِكم الحكماء باعتبارها نماذج عملية. كما يبرز حرص ابن عاشور على الربط بين الدلالة النصية والوظيفة الأخلاقية، بأسلوب علمي جامع بين البلاغة والمقاصد والتهذيب، ما يجعل تفسيره صالحًا للاجتهاد التربوي المعاصر.

النتائج:

1. ابن عاشور يقدّم القيم الأخلاقية من منظور تربوي مقاصدي، يتجاوز التفسير اللفظي إلى الغاية الإصلاحية. يتّضح من منهج ابن عاشور في تفسيره لسورتي مريم ولقمان أنّه لا يكتفي بشرح المفردات أو الجمل على المستوى اللغوي أو البلاغي فقط، بل يسعى إلى إبراز البعد التربوي والإصلاحي للنص القرآني، بوصفه مصدرًا لتقويم السلوك الفردي والاجتماعي. فهو يعامل القيم القرآنية كوسيلة لترسيخ منظومة أخلاقية متكاملة تنبع من المقاصد العليا للشريعة، مثل حفظ الدين والعقل والأسرة والمجتمع، ويُوظّف هذه القيم في سياق إصلاح الذات والعلاقات الإنسانية، مما يجعل تفسيره صالحًا لبناء مشروع أخلاقي وتربوي مستدام. ويظهر هذا في تعليقه على وصايا لقمان، حيث يُبرز الأبعاد النفسية والاجتماعية للتوحيد، والبرّ، والاعتدال في القول والسلوك، لا بوصفها أوامر منفصلة، بل كمنظومة تنموية متماسكة
2. سورة لقمان تركّز على القيم التوجيهية المباشرة (الحكمة، التوحيد، البرّ، التقوى)، بينما سورة مريم تعتمد الأسلوب القصصي في ترسيخ القيم (الرحمة، الصبر، التواضع).، ففي تحليل ابن عاشور، يُلاحظ الفرق المنهجي بين السورتين في عرض القيم: فسورة لقمان ذات طابع تعليمي مباشر، تأتي فيها القيم بصيغة وصايا موجّهة، تخاطب العقل والضمير وتؤسس لخطاب تربوي واضح، كما في قول لقمان لابنه: {يا بني لا تشرك بالله}، ثم يتبعها بقيم تتعلّق بالسلوك الاجتماعي والوجداني، كبرّ الوالدين، وخفض الصوت، والاتزان في المشي. أما في سورة مريم، فإن السياق القصصي يُقدّم القيم من خلال النماذج البشرية للأنبياء والصلحاء، مثل زكريا ومريم وعيسى وإبراهيم وموسى، فتُستَخلص القيم من مواقفهم: الصبر، الإخلاص، الحياء، والتسليم لأمر الله. وتساعد السردية القرآنية هنا في ترسيخ القيم في النفوس من خلال التمثيل الواقعي والعاطفي.

3. يتناسب عرض القيم مع الموضوع القرآني، مما يدل على وعي منهجي عند ابن عاشور في ترتيب الأولويات الأخلاقية.
4. يتعامل ابن عاشور مع كل سورة باعتبارها وحدة موضوعية متكاملة، فيربط القيم التي يبرزها بالرسالة العامة للسورة. ففي سورة لقمان التي يغلب عليها الطابع التعليمي والوعظي، يُقدَّم خطاب أخلاقي موجّه إلى الفرد لبناء وعي ديني وأخلاقي متكامل. أما في سورة مريم، التي تتناول حياة عدد من الأنبياء، فإن التركيز ينصبّ على القيم النابعة من التجارب النبوية والصبر على الابتلاء، لتغذية البعد الروحي في النفس المؤمنة. وهذا التناسب بين الموضوع والقيمة يؤكّد على وعي ابن عاشور بمقاصد الخطاب القرآني، وقدرته على استخراج القيم بما يتلاءم مع السياق النصي، لا وفق ترتيبٍ خارجي مفروض، مما يمنح تفسيره اتساقًا موضوعيًا وأخلاقيًا رفيعًا.
5. يُظهر تفسير ابن عاشور توازنًا بين التحليل البلاغي والوظيفة الأخلاقية والاجتماعية للنصوص.

التوصيات

1. دعوة إلى دراسة القيم القرآنية في ضوء التفسير المقاصدي والتربوي، لا سيما عند المفسرين المجددين كابن عاشور، بما يُعيد تفعيل الرسالة الأخلاقية للقرآن في المجتمعات المعاصرة.
2. توصية بإعداد مناهج تعليمية قرآنية تستفيد من منهج ابن عاشور في عرض القيم، تجمع بين التحليل البلاغي والمقاصدي، وتربط بين النص والسلوك، لتكوين وعي أخلاقي عملي لدى الناشئة.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1. ابن فارس، أبو الحسين أحمد (ت 395هـ)، (1979م). مقاييس اللغة، (تحقيق: عبد السلام محمد هارون). دار الفكر. بيروت..
2. حلبي، عبد المجيد طعمه، (2001/1422م)، التربية الإسلامية للأولاد منهجاً وهدفاً وأسلوباً. دار المعرفة . بيروت .
3. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضل (ت 1108ه)، (2007م). الذريعة إلى مكارم الشريعة (تحقيق: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي). دار السلام. القاهرة .
4. ابن المفضل، الحسين بن محمد (1991م). المفردات في غريب القرآن، ط1، (تحقيق: صفوان عدنان الداودي). دار القلم، الدار الشامية. دمشق – بيروت.
5. الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي (ت ٣٦٠هـ)، (د.ت)، المعجم الكبير، ط٢، تح: حمدي بن عبد المجيد السلفي (ت ١٤٣٣هـ)، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د.ت.
6. ابن منظور، محمد بن مكرم الأَفْرِيقِي. (1994م). لسان العرب، (ط3). دار صادر. بيروت.(الأصل 1414هـ).
7. ابن عاشور، محمد الطاهر. (1984م). التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر. تونس .
8. الفيروزآبادي، مجد الدين (1996م). بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (تحقيق: محمد علي النجار). المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي. القاهرة.
9. المناوي، محمد عبد الرؤوف (1990م). التوقيف على مهمات التعاريف، ط1، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان. عالم الكتب. القاهرة .
10. فريد، أحمد ، (د.ت)، التربية على منهج أهل السنة والجماعة. المكتبة التوفيقية. القاهرة.
11. فاطمه، محمد خير، (2004)، منهج الإسلام في تربية عقيدة الناشئ، ط2، دار الخير. بيروت.
12. الفقيه، أروى. (1430–1431هـ). بحث في القيم. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض .
13. الكيلاني، ماجد عرسان (2009م). فلسفة التربية الإسلامية، ط1. دار الفتح. عمّان.
14. أبو مغلي، سميح، وآخرون. (2002م). التنشئة الاجتماعية للطفل، دار البازوري. عمّان.
15. الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ – ٣١٠هـ). (د.ت). جامع البيان، دار التربية، مكة المكرمة.

16. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣ هـ). (2007). مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر.

17. الصافي، الصافي صلاح. (2019). سورة مريم دراسة تفسيرية وبيانية، حولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا، مج11، ع11، القاهرة.

18. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣ هـ). (1428هـ/2007). كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطا، تحقيق: طه بن علي بوسريح التونسي، دار السلام للطباعة والنشر، ط2.

19. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣ هـ). (1433هـ). تحقيق: ياسر بن حامد المطيري، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، ط2، الرياض.

The Holy Qur'an

1. Ibn Faris, Abu al-Husayn Ahmad (1979). Language Standards (edited by: Abdul Salam Muhammad Harun). Beirut: Dar al-Fikr.
2. Halabi, Abdul Majeed Tuma, (2001/ 1422), Islamic Education for Children: Methodology, Objective, and Style, Beirut, Dar al-Ma'rifa.
3. Al-Raghib al-Isfahani, al-Husayn ibn Muhammad ibn al-Mufaddal (2007 AD). Aldharirat alaa makarim alShari'a (edited by: Dr. Abu al-Yazid Abu Zayd al-Ajami). Cairo: Dar al-Salam.
4. Al-Husayn ibn Muhammad ibn al-Mufaddal (1991 AD). Vocabulary in the Unusual Words of the Qur'an, First edition, (edited by: Safwan Adnan al-Dawudi). Damascus - Beirut: Dar al-Qalam, Dar al-Shamiya.
5. Al-Tabarani, Sulayman ibn Ahmad ibn Ayyub ibn Mutayr al-Lakhmi al-Shami (d. 360 AH), Al-Mu'jam al-Kabir, 2nd ed . Hamdi ibn Abd al-Majid al-Salfi (d. 1433 AH), Ibn Taymiyyah Library, Cairo,., n.d.
6. Ibn Manzur, Muhammad ibn Makram al-Afriqi (1994). Lisan al-Arab (3rd ed.). Beirut: Dar Sadir.
7. Ibn Ashur, Muhammad al-Tahir (1984). Al-Tahrir wa al-Tanwir (Editing and Enlightenment). Tunis: Tunisian House for Publishing.
8. Al-Fayruzabadi, Majd al-Din (1996). Insights of the Discerning in the Subtleties of the Noble Book (edited by Muhammad Ali al-Najjar). Cairo: Supreme Council for Islamic Affairs - Committee for the Revival of Islamic Heritage.
9. Al-Manawi, Muhammad Abd al-Ra'uf (1990). Al-Taqeef 'ala Muhimmat al-Ta'arif, First Edition, (edited by Abd al-Hamid Salih Hamdan). Cairo: Alam al-Kutub.

10. Farid, Ahmad, Education According to the Methodology of Ahl al-Sunnah wal-Jama'ah, Egypt, Al-Tawfiqiya Library, pp. 17-19.
11. Fatima, Muhammad Khair, (2004), The Islamic Methodology in Educating the Young on the Creed, 2ed; ed Beirut, Dar al-Khair,
12. Al-Faqih, Arwa. (1430–1431 AH). A Study of Values. Riyadh: Imam Muhammad ibn Saud Islamic University.
13. Al-Kilani, Majid Arsan (2009). The Philosophy of Islamic Education (1st ed.). Amman: Dar al-Fath.
14. Abu Mughli, Samih, and others (2002). Socialization of the Child, Amman: Dar al-Bazuri.
15. Al-Tabari, Abu Ja'far, Muhammad ibn Jarir al-Tabari (224-310 AH). (n.d.). Jami' al-Bayan, Dar al-Tarbiyah, Makkah al-Mukarramah.
16. Ibn Ashur, Muhammad al-Tahir ibn Muhammad ibn Muhammad al-Tahir ibn Ashur al-Tunisi (d. 1393 AH). (2007). The Objectives of Islamic Law, edited by Muhammad al-Habib ibn al-Khuja, Ministry of Endowments and Islamic Affairs, Qatar.
17. Al-Safi, Al-Safi Salah. (2019). Surah Maryam: An Interpretive and Rhetorical Study, Annual of the Faculty of Fundamentals of Religion and Islamic Propagation, Tanta, Vol. 11, No. 11, Cairo.
18. Ibn Ashur, Muhammad al-Tahir ibn Muhammad ibn Muhammad al-Tahir ibn Ashur al-Tunisi (d. 1393 AH). (1428 AH/2007). Kashf al-Mughtay min al-Ma'ani wa al-Alfaz wa-l-Muwatta', edited by Taha ibn Ali Busrih al-Tunisi, Dar al-Salam for Printing and Publishing, 2nd ed.

Ibn Ashur, Muhammad al-Tahir ibn Muhammad ibn Muhammad al-Tahir ibn Ashur al-Tunisi (d. 1393 AH). (1433 AH). Edited by: Yasser ibn Hamid al-Mutairi, Dar al-Minhaj Library for Publishing and Distribution, 2nd ed., Riyadh.